

بسم الله الرحمن الرحيم

رياض الصالحين

شرح حديث ابن مسعود رضي الله عنه - "أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى؟"

الشيخ: خالد بن عثمان السبت

الحمد لله، والصلوة والسلام على رسول الله، أما بعد:

ففي باب بر الوالدين وصلة الأرحام أورد المصنف -رحمه الله- حديث أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه - قال: ((سألت النبي صلی الله عليه وسلم - أي العمل أحب إلى الله تعالى؟ قال: الصلاة على وقتها، وقال: قلت: ثم أي؟ قال: بر الوالدين، قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله))^(١). متقد عليه.

ابن مسعود رضي الله تعالى عنه - سأله النبي صلی الله عليه وسلم - عن أي العمل أحب إلى الله. وفي بعض الروايات: أي العمل أفضل؟ وهكذا ينبغي أن يكون المؤمن كما كان أصحاب النبي صلی الله عليه وسلم - حريصاً غاية الحرص على معرفة أفضل الأعمال من أجل أن يعملاها، وذلك أن شرائع الإسلام كثيرة جداً وال عمر قصير، وقد يستنزف الإنسان عمره في أعمال مفضولة، ويترك الأعمال الفاضلة، فلا تكون تجارتة رابحة كما ينبغي، قد ينقضي عمر الإنسان مثلاً - وهو يميط الأذى عن الطريق، يفعل الفرائض ولكنه بحث عن عمل صالح زائد فيميط الأذى عن الطريق، وينقضي نهاره بهذا العمل، وإماتة الأذى عن الطريق صدقة، ولكن هل هذا هو أفضل العمل بحيث يقصده الإنسان ويتطله ويصرف فيه الساعات والأيام؟، الجواب: لا، هناك ما هو أفضل من ذلك، طلب العلم الشرعي أفضل من إماتة الأذى عن الطريق، السعي في حاجة المسلم أفضل من إماتة الأذى عن الطريق، قد يمضي الإنسان وقتاً طويلاً في الاعتكاف وهذا من أفضل الأعمال، إلا أن النبي صلی الله عليه وسلم - أخبر أنه حينما يذهب في حاجة مسلم أحبابه من أن يعنك في مسجده شهراً، حاجة لربما ما تستغرق خمس أو عشر دقائق أحب إليه من أن يعتكف شهراً في مسجده -عليه الصلاة والسلام-، فهذا يدل على أن الإنسان يحتاج إلى فقه، وهذا هداية من الله تبارك وتعالى - للإنسان.

ونحن نكرنا في بعض المناسبات في الكلام على قوله تعالى: **{اهدنا الصراط المستقيم}** [الفاتحة: ٦] أن من أنواع الهدايات الداخلة تحت هذا الدعاء أن يهدى الإنسان لأفضل الأعمال فيعملها، فالأعمال كثيرة، ما هو الأفضل الآن أعمل هذا أو أعمل هذا؟ وقد تزدحم على الإنسان الأعمال الصالحة، فيحتاج إلى أن يقوم ما هو أكمل وأحب إلى الله تبارك وتعالى -، فابن مسعود رضي الله تعالى عنه - يفهم هذا المعنى، ولذلك سأله النبي صلی الله عليه وسلم - عن أحب الأعمال إلى الله، أو عن أفضل الأعمال، فقال: ((الصلاحة على وقتها))، وجاء في بعض الروايات أن النبي صلی الله عليه وسلم - قال: ((في أول وقتها))، وهذا فيما لا يكون الأفضل فيه التأخير، وذلك فيما يطلب فيه الإبراد كالظهور في شدة الحر، بحيث لا يفوت الجمعة،

^(١) - أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب قول الله تعالى: **{وَوَصَّيْنَا إِلَيْنَا بِوَالدِّيْهِ حُسْنًا}** [العنكبوت: ٨، ٢/٨)، برقم: ٥٩٧٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان باشارة تعالى أفضل الأعمال، (١/٨٩)، برقم: ٨٥).

وكذلك أيضاً في صلاة العشاء إذا اتفقا على أن يؤخروا كما فعل النبي -صلى الله عليه وسلم- مرة وأخبر أنه وقتها لو لا أن يشق على أمته، فالشاهد أن الصلاة في أول الوقت هي أفضل العمل، ولذلك نحن نحتاج إلى شيء من البصر، والفقه فيما نأتي من الأعمال وما نذر.

قد يذهب ذهن الإنسان إلى أشياء بعيدة، يحاول أن يتقرب إلى الله -عز وجل- مع التفريط الكثير في هذه الأمور التي نكرها النبي -عليه الصلاة والسلام-، الصلاة لوقتها أفضل الأعمال، فهذا شيء يفرط فيه كثير من الناس، فكثير منهم يأتي من عمله وبينما فلا يصلى العصر إلا بعد اصفار الشمس، يكون قد خرج وقت الاختيار، كثير من الناس لا يصلى صلاة الفجر إلا إذا طلعت الشمس، مع أن هذا قد لا تصح معه الصلاة أصلاً، وكثير من أهل العلم يقولون: لا يقضيها، بل قال بعضهم: إن خرج وقتها من غير عذر فإنه يكفر بذلك، فالشاهد أن هذا العمل الذي نتساهم فيه كثيراً هو أفضل الأعمال، أو أحب الأعمال إلى الله -بارك وتعالى.

قلت: ثم أي؟ قال: ((بر الوالدين))، وكثير من الناس لا يظن أنه مقصراً في هذا المعنى أيضاً، يظن أنه بار، ولربما خرج ودخل وأبوه يمنعه، أو أمه تمنعه من هذا الدخول وهذا الخروج، وهو لا يبالي، وإذا طلبوا منه حاجة أو شيئاً زجرهما أو تألف، فهذا كلّه من العقوق، والعقوق الواقع فيه كثير من الخلق صوره لا تحصى، فبر الوالدين من أجل الأعمال وأفضل الأعمال، أفضل من أن يجلس الإنسان يقوم ليلة كاملة أن يقوم على حاجة لوالدٍ أو والدة، أفضل من أن يقرأ ختمة من القرآن أن يقوم على أمر والد يحتاجه أو والدة تحتاجه، قد يظن الإنسان أنه حينما يشغل بمعرفة كالتطوع في الحج، أو التطوع في العمرة أو نحو هذا أنه في طاعة الله -عز وجل- وأبوه في حاجته وبينها عن هذا الخروج، ومع ذلك لا يبالي.

أقول: هذه صور تقع كثيراً، بر الوالدين أفضل من صيام التطوع، ومن قيام الليل، ومن حج التطوع، ومن العمرة التي يتطوع الإنسان فيها، حق الوالدين بعد حق الله -عز وجل- كما مضى في الآيات التي ذكرناها بالأمس، وهذا يعني لو فتش الإنسان ونظر في حاله ونفسه وطريقة تعامله مع والديه لعرف شدة التقصير مع أن هذا من أفضل الأعمال، ولربما ظن أن هذه تضحيات منه، وأن هذا يفعله على إغماض؛ لأن قيامه على والده أو والدته شغله عن عبادة أخرى كان يريد أن يعملاها، وما علم أن هذا العمل الذي يقوم به عبادة من أفضل العبادات، فهنا قال: ((بر الوالدين)).

قلت: ثم أي؟ قال: ((الجهاد في سبيل الله))، فصار بر الوالدين أفضل من الجهاد، بل قال بعض السلف كخطاء: إن القيام على الأخوات أفضل من الجهاد في سبيل الله، فيحتاج الإنسان إلى كثير من النظر في كثير من المعاني التي يظن أنها قد تحققت فيه وأنه قد درسها دراسة لا يحتاج معها إلى إعادة، والعبرة بواقعنا العملي، وما نحن فيه من التقصير والتشرير في طاعة الله -عز وجل-، والقيام بحقوق الخلق، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يسأل في بعض الأحاديث عن أفضل الأعمال فلربما ذكر شيئاً آخر، فهذا يمكن أن يحمل على أنه بحسب حال السائل، فيوجه هذا إلى ما ينفعه وما هو أدنى في حقه، وهذا ما هو أدنى في حقه.

وهكذا حينما يُطلب منه الوصية -صلى الله عليه وسلم-، يوصي هذا يقول له: ((لا تغضب))^(٢)؛ لأنه لربما كان من طبعه الغضب، وهكذا، ولربما يكون ذلك بحسب الوقت فيكون النبي -صلى الله عليه وسلم- قال هذا في وقت تكون فيه هذه الأمور مقدمة على غيرها، ويقول في وقت آخر أموراً أخرى.

والمعروف من النظر في مجموع الأحاديث أنه لا يقال: إن العمل الفلاني أفضل من كل وجه، وإنما ذلك يختلف، هذا الجمع بين الأحاديث الواردة في هذا، كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- وغيره أن ذلك يختلف، فإذا أذن المؤذن فأفضل العمل هو الصلاة، وإذا جاء وقت الحج فأفضل العمل هو الحج، وإذا دعا داعي الجهاد فأفضل العمل هو الجهاد، وهكذا في كل حال بحسبها، كما أنه يختلف أيضاً باختلاف الناس، فقد يكون هذا العمل بالنسبة لهذا أفضل من غيره؛ لأنه لا يستطيع أن يقوم بالعمل الآخر على وجهه، وإنما يستطيع أن يقوم بهذا، فالرجل قد يكون فيه قوة وشجاعة وصبر وإقدام ونصرة للمسلمين فيكون الجهاد في حقه أفضل، وآخر فيه ذكاء ونبوغ وفهم وما أشبه ذلك فالعلم في حقه أفضل، وهكذا في أعمال كثيرة، ولذلك أيضاً لا يقال: إن سكناً مكة أفضل من غيرها، أو سكناً المدينة أو بيت المقدس أفضل من غيرهما، وإنما يختلف أيضاً باختلاف الناس، فحيثما يجد الإنسان قلبه ويستطيع أن يعبد ربه وهو مستريح فهذا هو الأفضل في حقه، ولو كان في غير هذه البقاع الثلاث التي هي من أفضل البقاع، فهذا من الفقه الذي يحتاج إليه المسلم، والمقصود هو تحقيق العبودية لله -تبارك وتعالى-، والله أعلم.

وصلى الله على نبينا محمد، وآلـه وصحبه.

^٢- أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، (٢٨/٨)، برقم: (٦١٦)، عن أبي هريرة -رضي الله عنه.